تذكرة ذهاب بلا عودة

كل عام وأنت بخير، والسنة القادمة بأمر الله تكون مع حفيدك الأول.

هكذا أنهى المدير الطبي لمستشفى «الأمل» الكلمة الختامية للحفل المقام على شرف د. أحمد بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده الواحد والستين، والذي يصادف آخر يوم عمل له بتلك المستشفى الذي عمل به أكثر من ثلاثين عامًا، وسيستقل غدًا طائرة الساعة الرابعة إلى البلد الذي قدم منه أول مرة.

بعد الحفل بدأ يحزم أمتعته وينقّحها، ويتذكر هل نسي شيئًا من مقتنياته.

فيرد عليه خالد صديق غربته ورفيق دربه: «يا سيدي لو فيه حاجة مجتش معاك هبعتهالك بالشحن على حسابي».

- »يا سيدي هو موضوع حسابي وحسابك، أنا بس مش عايز أسيب حاجة هنا».

رد أحمد: خلاص كده كله تمام.

ـ بحول الله يلا بينا.

ـ متنساش تبقى تدي نسخة المفتاح اللي معاك لصاحب السكن.

ـ فاكر أنت اديتني النسخة دي إمتى؟

ـ طبعًا فاكر من سبع سنين بالضبط، بعد ما جتلي الأزمة القلبية، وقلتلك إنت اللي هتفتح عليا لو مُت لوحدي.

ـ يا سيدى أهو أنت زي الفل أهه، كانت أزمة وعدت، وأهو أنت راجع لعيالك.

ـ أنا مش عارف يا د.أحمد، أنا هكمل السنة اللي جايه دي من غيرك إزاي؟

دخل الرفيقان المطار الساعة الثانية ظهرًا، وقام أحمد بعمل إجراءات السفر، وودّع (خالد) وغاب بين الأنظار ليعبر الجوازات والتفتيش ليصل بعدها إلى صالة الانتظار القريبة من بوابة الصعود للطائرة.

بعد النظر إلى اللوحة، وجد أن عنده ساعة قبل موعد الصعود، وتذكر أنه لم يذق طعامًا منذ أمس، ذهب إلى الكافيتريا، وطلب بعض الشطائر التي سوف تكون جاهزة خلال عشر دقائق، ذهب إلى أقرب حمام ليحقن نفسه جرعة الأنسولين ليعود ليتناول وجبته.

بعد أقل من خمس وأربعين دقيقة صعد إلى الطائرة، وأشارت المضيفة إلى المقعد الذي كان بانتظاره، وبعد قليل بدأ يستمع إلى تعليمات الأمن والسلامة المعتادة التي يسمعها مرتين على الأقل كل عام، وكان يرددها تلقائيًّا دون أن يشعر.

بدأت أنفاسه بالتسارع ليتنفس أكثر من هواء هذا البلد الذي اعتاد أن يستنشقه بحلوه ومرّه.

بدأ الكابتن بإعطاء تعليمات لملاحي المقصورة، وهو يعرف هذه الجملة جيدًا:

Cabin crew please take your seats for take off

أغمض عينه واستسلم للنوم، وبدأ يرى في منامه شريط ذكرياته، فعادت به الذاكرة إلى الخلف بعيدًا؛ حيث تذكر ذلك اليوم الذي زُفَّت إليه بشرى طباعة تأشيرة السفر على جواز سفره، وكيف كانت عينه تلمع من الفرحة كأنها تضيء له طريقه ليذهب مهرولًا إلى والده:

ـ بابا بابا.

ـ نعم يا حبيبي.. إيه الفرح دا كله؟

ـ أخيرًا يا بابا أخيرًا.

ـ الباسبور جه ولا إيه؟

ـ أيوا يا بابا، أخيرًا خلاص هسافر.. ربنا يقدرني واسعدك أنت وماما.

ـ ربنا يسعدك يا حبيبي.

وبدأ يتمتم بكلمات بينه وبين نفسه بدعوات أن يحفظ الله ولده، ويرده إليه سالمًا غانمًا، وهو يداعب شعره ويتحسس الشيب فيه.

وتذكر أول رحله طيران أقلّته إلى هذا البلد الذي يغادره الآن؛ حيث إنها كانت صعبة بالنسبة له، لأنها كانت أول مرة يستقلّ فيها الطائرة، واستسلم فيها بالنوم، والابتسامة لا تغادر شفتيه.

ـ هي الطيارة هتوصل الساعة كام؟ يا رب تكون في معادها ومتتأخرش.

سألت الشابة الخمرية ياسمين أخاها، وهي تسارع خطواتها.

ـ إن شاء الله تيجي في معادها. رد الأخ محمود.

ـ أنا مبسوطة أوي إننا هنعيش مع بابا تاني زي زمان.

محمود شاب في بداية عمره قدم طلبًا إلى الجامعة لتأجيل حفل تخرجه من الكلية أسبوعًا لحين عودة والده، ونظرًا لتفوقه في الدراسة منذ أن التحق بها منذ خمس سنوات، وافقت الجامعة على هذا الطلب، وتم تأجيل الحفل ليصبح غدًا بأمر الله.

اضطر محمود لمغادرة بلد إقامة الوالد للدراسة بالجامعة، وأساتذته يعلمون غياب الأب فترة الجامعة.

وأما ياسمين أو ياسمينا كما كان ينعتها أبوها منذ الصغر أو زهرة الربيع، كما كان يدعوها تارة أخرى، فقد انتقلت هي ووالدتها منذ ثلاث سنوات للعيش مع أخيها أيضًا لظروف الجامعة؛ حيث إن الدولة التي يعمل بها الوالد لا تسمح لغير المواطنين بالالتحاق بالجامعات الوطنية إلا في أضيق الظروف، فاضطرت للموافقة على العودة متمنية العودة إلى أحضان أبيها بعد الدراسة مباشرة.

ابتسمت الأم للحوار الذي دار بين ياسمين ومحمود، وتحدِّث نفسها بأنه قد حان الوقت ليجمع الله شتات الأسرة الصغيرة بعد الفرقة، وستقضي مع أحمد زوجها ما تبقى لهم من أيام في الدنيا.

فتح أحمد عينيه على إحدى فتيات طاقم الطائرة، وهي تسأله عن نوع الطعام الذي يودّ أن يتناوله. فطلب وجبته وبدأ يأكلها ببطء، وأخذ يتذكر آخر حوار بينه وبين خالد وهو يتحسس نسخة المفتاح التي لم يتركها.

أكل وجبته وهو يحاول استعادة شريط ذكريات رُفقته، أخذته هذه المحطة إلى رفقاء دربه في المستشفى وضحكاتهم.. خروجاتهم.. لعبهم.. ومحنهم.. فلتت دمعة من عينه حاول أن يمسحها من على وجهه، فتحسس التجاعيد التي على وجهه، وغطَّ بعدها في نوم عميق.

استيقظ على ابتسامة المضيفة، وهي تؤكد ربط حزام المقعد؛ لأن الطائرة أوشكت دخول الأجواء الوطنية، وقاربت على الهبوط، فابتسم أنه لم يقم بفكّه أصلًا، واستطرد قائلًا: إنها تشبه ابنته التي تنتظره في المطار اعتدل في جلسته متهيئًا للهبوط.

ـ إيه يا محمود! هي الطيارة اتأخرت ولا إيه؟
ـ مش عارف يا ياسمين.

تعلن الخطوط الوطنية عن وصول رحلتها رقم987 عبر بوابه رقم 7 ب.

ـ وصلت.. هي دي الرحلة، والركاب بدأت تخرج.

أخذ الثلاثة يطالعون في وجوه الركاب القادمين من البوابة، والانتظار يأكل مشاعرهم.

مرَّ الوقت، وبدأ القلق يتسرب إلى قلوبهم، ويأتي صوت في السماعة عبر الصالة: «على عائلة الدكتور أحمد الذهاب إلى الاستعلامات للأهمية».

هرول الثلاثة إلى الاستعلامات، ونبضات قلوبهم تكاد تسبق خُطَاهم، وعند الموظف المسؤول أخبرهم بأن روح د. أحمد أبت أن ترجع إلى هذا البلد ثانية، وأنه قد وافته المنية بمجرد ملامسة

الطائرة أرض المطار، وأنها ظلت هناك حيث قضى شبابه ولم يعد إليهم إلا جسده لكي يُوَارَى الترابَ بجوارهم؛ ليزوروا قبره ويخبروه بآمالهم التي قد تحطمت في المطار يوم كانوا ينتظرون.